اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام ج١٣

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم.

نستكمل ما بدأناه في تفسير سورة الأنعام، وقد توقفنا عند قول الله عز وجل في [الآية: ٨٠]: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام ٨٠]. كنا قد تحدثنا عن الآيات التي ذكرت قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهل كان سيدنا إبراهيم ناظرًا أم مناظرًا، تكلمنا في هذه المسألة، وذكرنا ما قيل .

الشاهد: أن سيدنا إبراهيم قال في آخر الآيات : {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام ٧٩]. فقد قلنا أن سيدنا إبراهيم مر بثلاث مراحل أو ثلاث كلمات قالها. وكلمات الأنبياء -كما قلنا- تُدّرس؛ لأنها تحمل معاني إيمانية عظيمة، وتوفّر على الإنسان سنوات في الطريق إلى الله عز وجل.

فأول كلمة: قال: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام ٧٦].

والكلمة الثانية هي: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} [الأنعام ٧٧].

والكلمة الثالثة هي: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام ٧٩].

عندما وصل سيدنا إبراهيم للمرحلة الثالثة: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام ٧٨]، إما قالها مناظرًا لقومه، أو قالها بعدما تدبر ووصل لهذه المرحلة، فأوحى الله عز وجل إليه وبيّن له، فذهب إلى قومه لينذرهم {إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}.

الشاهد: أن معرفة الله عز وجل عندما تسكن في قلب إنسان فلا يستطيع الكتمان! فبعد أن قال سيدنا إبراهيم: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}، هداه الله عز وجل وبصّره وبيّن له وعرّفه، فقال بعدها مباشرةً: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام ٧٩]. فتوجه سيدنا إبراهيم مباشرة إلى دعوة قومه بعد أن هداه الله عز وجل.

القلب الذي يمتلئ بمعرفة الله عز وجل لا يستطيع الكتمان، لا يستطيع السكوت! القلب الذي يحب الله عز وجل لا يستطيع التوقف عن الكلام عن الله. فإذا قلت له: لا تتكلم عن الله، وتوقف عن الدعوة إلى الله عز وجل، فكأنك كلفته بالمستحيل، كلفته بما لا يطيق، وبالتالي لن يستجيب، ولن ينفذ. ولذلك مَنع الداعية من أن يتكلم عن الله مستحيل أن يحدث، وسيظل يتكلم عن الله حتى في آخر لحظات حياته!

وهذا يُذكرنا بحديث قصة الغلام [1] –غلام الأخدود– وكان كل ما يتمناه قبل أن يموت: أن يسمع كلمة "آمنا برب الغلام"، وقد دفع ثمن سماع هذه الكلمة من الناس. فدل الملك على طريقة قتله، وقال: "إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضعه في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام". حتى يجعل الملك ينطق بهذه الكلمة، وحتى يجعل الناس ينطقون بهذه الكلمة –كلمة "بسم الله رب الغلام"– دفع روحه ثمنًا لها! فتأمل أثناء قراءتك للحديث كيف أن الغلام يقول له: "لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به"، فيشرح له طريقة قتله، ويدله على آخر لحظات حياته كيف ستحدث، كل هذا حتى يسمع كلمة: "آمنا برب الغلام".

الداعية إلى الله عز وجل كل أمنيته أن يسمع كلمة الإيمان من الناس؛ {إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا} [النصر ١-٢]. فحينما حانت هذه اللحظة، لحظة دخول الناس أفواجًا في الدين، عَلِم النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا نعيه، فقد اقترب أجله، لماذا؟ لأن اللحظة التي عاش من أجلها –أن يرى بعينيه دخول الناس في دين الله أفواجًا– ستحدث أخيرًا، وهكذا أصبحت الحياة بلا قيمة! فالداعية كل همه أن يؤمن الناس، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، كل همه أن تُذكر كلمة الله في الأرض، وأن يعلو اسم الله عز وجل في كل مكان.

ولذلك لم يستطع سيدنا إبراهيم أن يكتم ما بداخله، وقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أصبحت الوجهة واحدة ولم يعد هناك التفات ليمين أو يسار. وهذه مرحلة ثالثة من المجاهدة.

[1] مسلم(٢٦١هـ)، صحيح مسلم ٣٠٠٥. [صحيح]

فالمرحلة الأولى هي: {لا أحب الآفلين} وهي خروج الدنيا كلها من القلب، وعدم الالتفات لأي شيء في الدنيا. والمرحلة الثانية: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين} وهي قمة الافتقار.

ثم تأتي المرحلة الثالثة ألا وهي: توحيد الوجهة. لذلك عندما نتكلم عن {وكيف أخاف}، فهذه نتيجة للمجاهدة في الطريق إلى الله عز وجل.

{وحاجه قومه}[الأنعام ٨٠] لا بد للداعية أن يعرف أنه سيواجه مشكلات كثيرة، فليس معنى أنهم قومك وأقرباؤك وأحباؤك أن يفرحوا حينما تكلمهم عن دين الله بعد التزامك.

لذلك يقول ربنا {وحاجه قومه} أقرب الناس له لم يستطيعوا أن يقبلوا هذه الكلمة، وأقرب الناس للنبي صلى الله عليه وسلم أخرجوه! فقد قال رسول الله: (أَوَ مخرجّي هم؟)[٢] هؤلاء قومي الذين يحبونني، الذين أطلقوا عليّ الصادق الأمين؛ هل سيخرجونني؟! نعم، سيخرجونك. مِن أحب البلاد إليّ؟! نعم، مِن أحب البلاد إليك. فقد كانت شهواتهم أقوى وقد قالوا له ذلك، قالوا له: يا محمد، لو كانت كلمةً لقلناها! هم يعلمون جيدًا أن المطلوب منهم ليس مجرد كلمة، بل المطلوب أن يتخلى عن شهواته، ويتخلى عن المصالح الاقتصادية القائمة في مكة، ويتخلى عن أشياء كثيرة يحبها.

وكذلك قوم إبراهيم يجب عليهم أن يتخلوا عن معبوداتهم ويتخلوا عن آلهتهم، ولذلك قالوا: لا!

{وحاجه قومه}: يقول بعض المفسرين: وكانت المحاجة هنا معها تهديد، والدليل على ذلك قول سيدنا إبراهيم {ولا أخاف ما تشركون به}[الأنعام ٨٠] فهي ليست مناظرة فقط، بل مناظرة تحت السيوف، وتحت التهديدات!

فكفار قريش يحاولون إقناعه؛ كي يترك دين الحق وينتكس عن الفطرة والحق –حاشاه صلى الله عليه وسلم– فيضغطون عليه بالتهديدات.

فالمحاجة هنا لم تكن مجرد نقاش في برنامج مثلًا! لا، بل كان هناك تهديد حتى يعود.

لذلك قال قوم إبراهيم: {فأتوا به على أعين الناس}[الأنبياء٦١]. حينما قرروا أن يلقوه في النار، أرادوا أن يجعلوا هذا المشهد –مشهد الإتيان به وربطه وإلقائه في النار– مشهدًا ضاغطًا {على أعين الناس}.

[٢] البخاري(٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٣. ومسلم (١٦٠). [صحيح]

هم يريدون الاستعلاء والضغط على الناس؛ حتى لا يفكر أحد آخر في قول الكلمة التي قالها سيدنا إبراهيم، وحتى لا يمضي أحد في الطريق الذي سلكه! فكان يمكن لقوم إبراهيم أن يقتلوه ليلا، في وقت لا يوجد فيه أحد، لكن لا، قالوا: اجمعوا الناس؛ حتى يشاهدوه جميعا في وقت واحد؛ حتى يروا ويشاهدوا بأنفسهم نهاية من يسلك هذا الطريق! وهذا هو أسلوب التهديد والضغط الذي يبذله دائمًا أهل الباطل حينما تعجزهم الحجة. فسيدنا إبراهيم يقارعهم بالحجة، لكنهم غير قادرين على مجاراته، وليس لديهم حجة، ولذلك يلجئون لأسلوب التهديد!

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}: هل تناقشونني في الله؟! المؤمن حينما يتكلم عن الله لا يتكلم عن كلمات قرأها، بل يتكلم عما عاش وعما ذاق؛ فهو يحدثهم عن إله عايش معاملته، فيقول لهم: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}! هل أتيتم لتناقشوني في ربي الذي هداني وأطعمني وسقاني!، طالما طلبت منه وأعطاني!، طالما توجهت إليه ولم يخذلني!! فالمؤمن حينما يُحدث الناس عن الله، هو يحدثهم عن إله عايش معاملته، فقد عايش معنى أن يستغفر الله فيتوب عليه، عايش معنى أن يسأل الله عز وجل فيعطيه، عايش معنى أن يلجأ إلى الله عز وجل فينقذه، عايش معنى {أَمَّن يجيب المضطر}[النمل ٦٢]. هو عايش هذه المعاني؛ لم يقرأها ولم يسمعها فقط، بل عاشها وذاقها، فيكلمهم عما رأى، لا عما قرأ أو سمع! وهذا هو الداعية الحق.

فيقول لهم: أمازلتم تجادلونني في الله الذي هداني وأنقذني من هذه الأحوال، وعصمني من السجود لهذه الآلهة؟!

وقد ذكر سيدنا إبراهيم أعلى نعمة، فلم يقل لهم: أتحاجوني في الله وقد أطعمني وسقاني -كما ذكرهم بهذه النعم في سورة الشعراء-، بل ذكّرهم بأعلى نعمة وأفضل نعمة، النعمة التي حُرموا منها، وهي نعمة الهداية. فقال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}. لذلك لا بد للمؤمن أن يسعد بهذه الهداية، فنعمة الإسلام ونعمة الالتزام والاستقامة هي أعلى نعمة. حتى لو عُذب الإنسان وقُطّع فيها لتمسك بها، ولم يتركها أبدًا.

لذلك يقول شيخ الإسلام كلمته الرائعة: "ماذا يفعل أعدائي بي؟ جنتي وبستاني في صدري، حبسي خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة". أي: القرآن في صدري، ومعاني الإيمان في صدري، فماذا يصنعون فيّ؟!

قال تعالى: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا}[النساء ١٤١]، قيل: أي: على قلوبهم –وهذا أحد المعاني. فهذا الكافر لن يستطيع أن يغير قلبي؛ لأن قلبي بيد ربي سبحانه وتعالى. ماذا يفعل بي وجنتي في صدري؟ إذا سجنوني، فهذه فرصة طيبة للنفس أن تخلو بنفسها فترة، فقد مرت فترة لم أستطع أن أجلس مع نفسي وأذكر ربي وأتفكر! وكذلك نفيي سياحة وقتلي شهادة؛ فماذا يصنعون بي؟!

فكذلك سيدنا إبراهيم، من يعرف الله فأعداؤه لا يقدرون عليه أبدًا. لذلك سيدنا إبراهيم يقول لهم أنه ليس بخائف، في أول الأمر يقول لهم {وَلَا أَخَافُ}، ثم يقول لهم: من أين يجئ هذا الخوف؟ كيف يكون الخوف؟، ليس فقط أنه لا يخاف، لكنه لا يعلم طريقة الخوف، كما سنرى في الآيات.

قال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} هنا ذكر أعلى صورة من صور الولاية، وهي ولاية الله عز وجل لعبد بأن يهديه سواء السبيل، {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}[البقرة ٢٥٧] صورة الولاية تتجلى في إخراج الناس من الظلمات إلى النور {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[الأعراف ١٩٦] صورة الولاية هنا تنزيل الكتاب من الله وهداية الناس بالقرآن.

قال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} ليرد على التهديد {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}[الأنعام ٨٠] هذا القول يوضح فقه سيدنا إبراهيم عندما قال: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} بدايةً نفى الخوف مما سوى الله عز وجل. نحن نريد دائمًا أن نصل لهذا المعنى، لماذا نخاف من غير الله عز وجل؟...هناك خوف فطري، مثل أن تخاف من أسد أو تخاف من كلب، هذا خوف فطري في الإنسان لا يُلام عليه، لكن الخوف الذي يُلام الإنسان عليه هو أن يظن ويعتقد أن هناك من بيده الضر والنفع، من بيده الرزق، من بيده قطع الرزق عنه، هذا هو الخوف المنهي عنه، الذي يصحبه اعتقاد وينتج عنه عمل، أن يتقرب به لآلهة الباطل، أو يتنازل عن جزء من دينه لإرضاء أهل الباطل بدون أي إكراه، فيشرح الله بالكفر صدره، إذا اعتقد أن غير الله يضر وينفع، مثال ذلك قول الله عز وجل في سورة البقرة: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}[البقرة ١٦٥] لماذا يحبه؟ لأنه يعتقد أنه يرزقه، يعتقد أنه ينفعه، فهو يحب سيده الذي يطعمه ويسقيه، يعتقد أنه بيده الرزق فيحبه!

- ما المراحل التي جعلت سيدنا إبراهيم يصل بها إلى مرحلة {وَلَا أَخَافُ}؟

أولًا: قلبه غير متعلق بالدنيا أو بالأسباب {لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ}[الأنعام ٧٦].

ثانيًا: كان في قمة الافتقار لله {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}[الأنعام ٧٧].

ثالثًا: سار على الطريق فازداد يقينًا {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}[الأنعام ٧٥]. وكلما تسير في هذا الطريق تزداد يقينًا.

وفي الحديث القدسي: (من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا)[٣]، لكن أنت لا تريد، يقول الله لك الشبر الأول عليك.

كما قال تعالى {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ}[الكهف ١٤]، متى؟ {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} هم قاموا أولًا ثم ربط الله على قلوبهم.

وأيضا قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[الأعراف ٩٦] هم يؤمنوا ويتقوا أولًا ثم يفتح الله عليهم، لا يستقيم أن تقول لله اربط على قلبي أولًا ثم سأقوم وأقول كلمة الحق، أو تقول أنزل لنا بركات من السماء أولًا ثم نؤمن ونتقى... التعامل مع الله لا يستقيم بهذه الصورة، التعامل مع الله إنك تمشي في الطريق فتجد معاملة من الله عز وجل، فتزداد يقينًا فتمشي في الطريق أكثر، فتجد معاملة من الله عز وجل أكثر، فتمشي في الطريق أكثر وهكذا، ثم بعد ما قطعت أشواط في الطريق يقول لك أحدهم: هذا الطريق باطل، ويعطيك ملحد أو نصراني فيديوهات ليثبت لك أن الطريق الذي تسير فيه طريق باطل، لذلك قال سيدنا إبراهيم {قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}[الأنعام ٨٠] كيف تتكلم معي عن طريق أسير فيه منذ سنوات، كيف تحدثني عن إله أتعامل معه منذ سنوات، كيف تكلمني عن يقين أعلمه! لذلك كلما يسير الإنسان في الطريق كلما أصبحت الشبهات لا تؤثر فيه، لكن عليه أن يظل سائرًا في الطريق، كأن يعمل في الدعوة إلى الله، يساهم في أعمال خيرية، ينشر دين الله سبحانه وتعالى، يطعم المساكين، يحافظ على الصلاة في المسجد، هو سائر في الطريق، فتجده كلما يمشي في الطريق أكثر كلما ازداد يقينًا. لكن من يقف مكانه ولا يسير في الطريق يصبح يقينه ضعيفًا، إذا جاءه من يقول: هذا ليس بالحق، أو إذا دخل منتدى أو غرفة صوتية

---

[٣] (من تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة) ابن تيمية(٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى ٢١٢/١٠. [صحيح]

وسمع شبهة يهتز، طبيعي لأنه لم يذق طعم اليقين، لم يسير في الطريق، لم يجاهد وهو سائر في هذا الطريق، ماذا فعل لهذا الدين؟ ماذا فعل لدينه هو شخصيًا؟

فلذلك قال سيدنا إبراهيم {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}، ثم يقول {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} ...ثم انظر لحكمة و فِقه سيدنا إبراهيم في هذه الكلمة: {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} هذه الكلمة وقف عندها المفسرون – بغض النظر عن التفسير اللفظي– قالوا: هذا اسمه استثناء منقطع معناه: أنا لست خائف من آلهتكم ولكني أخاف أن يشاء ربي شيئًا في عقابي، فأنا لست أخاف حقيقةً من آلهتكم ولكني أخاف من الله، {إلا} هنا استثناء منقطع بمعنى (ولكن).

{إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} فِقه وحكمة سيدنا إبراهيم أن يخبرهم بذلك حتى لا يفتنوا إذا حدث له شيئًا، نفترض أن الله قدّر شيئا على سيدنا إبراهيم فسينسبوه لآلهتهم فيفتنوا... مثل قول قوم موسى﴿ رَبَّنَا لا تَجعَلنا فِتنَةً لِلقَومِ الظّالِمينَ﴾[يونس: ٨٥]

وفي سورة الممتحنة {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}[الممتحنة ٥]، فكيف أكون فتنة للكفار؟

قيل من المعاني: يا رب لا تسلطهم علينا فيعذبونا وينتقموا منا فيُفتنوا بهذا التعذيب، تخيل أن أهل الإيمان وهم يُعذّبوا من أهل الكفر مشغولين أنهم يُفتنوا بهم!، هذا يبين مدى حرص أهل الإيمان على إيمان الناس، فيدعو ألا يتسلط عليه من يعذبه لأنه بهذا التسلط سيعتقد أنه على الحق، لأن **حسابات أهل الباطل دائمًا تكون بالمقاييس المادية "الذي معه القوة هو صاحب المنهج الصحيح"!**

لذلك قال لهم سيدنا إبراهيم: لو حدث لي شيئًا فاعلموا أنه بتقدير من الله عز وجل. {وَسِعَ رَبِّي} الذي هداني وأطعمني وسقاني ورباني بنعمه، {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}[الأنعام ٨٠] لا يخرج شيء عن علمه، كل شيء يحدث بتقدير الله عز وجل، لا يوجد شيء اسمه صدفة، ليس هناك ما يسمى طلقة طائشة، لا شيء يحدث هكذا، كل شيء يحدث بتقدير {ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسى}[طه ٤٠]، كل شيء بقدر {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}[الأنعام ٥٩]، في نفس السورة ذكرناها آنفًا.

هنا يبرز سؤال هام: هل الإنسان وهو يتناظر مع قوم يدّعي أنه سيُحفظ؟ هل الإنسان له ذلك؟ بمعنى هل يستقيم أن يقسم لهم: إنكم لا تستطيعون إيذائي؟ لا يجب أن يتجرأ الإنسان أن يقول ذلك إلا بإضافة المشيئة {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}. لذلك مما يَفتن الناس: قول البعض يا رب نصرك الذي

وعدت، يا رب نصرك، فمن الممكن أن ينهزموا، فيتعجب الناس كيف لم يُنصروا، هذا الوعد لمن؟ هو وعد من الله عز وجل لطائفة المؤمنين عامة، فليس لك وعد مخصوص، التدخل في تخصيص وعد الله عز وجل لطائفة معينة، أو في زمان معين، أو في مكان معين ممكن أن يفتن الناس، مادام الله سبحانه وتعالى لم يحدد من الذي سينصره بذاته!، قطعًا الدعوة إلى الله عز وجل تحفظ الإنسان، سنجد هذا المعنى في أكثر من آية في القرآن، {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} [غافر ٤٥] مؤمن آل فرعون، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة ٦٧] هنا العصمة من الناس عمومًا، {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} [الجن ٢٢] سورة الجن، بمعنى أنه لن يعصمني شيء من الأضرار إلا تبليغي لدين الله سبحانه وتعالى.

لكن قد يقدّر الله عز وجل تقدير معين على شخص معين في مكان معين، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد١١] أحيانا يرفع الله هذه المعقبات ويحدث ما قدّره الله عز وجل بالرغم من كون هذا الشخص طائعًا، فالنبي صلى الله عليه وسلم أُلقي عليه سلا جذور، وأصيب في أُحُد صلوات الله عليه، وقُتل كثير من الصحابة شهداء في المعارك، بمعنى أن الإنسان حتى إذا كان مؤمنًا أو أنه يبلغ عن الله لن يكون معصومًا عصمة مطلقة، ولكن ما يحدث له يكون بتقدير من الله عز وجل.

فلذلك من الحكمة أن قال لهم سيدنا إبراهيم {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} لذلك بعض العلماء قال أن سيدنا هود لم يقل لقومه {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} لكنه قال: {فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون} [هود ٥٥] تحدى قومه وهم قوم عاد أكثر الناس بطشًا، وقال لهم: لن تستطيعوا أن تضروني بشيء، هذه معجزة سيدنا هود، لأنهم ماذا قالوا له؟ {قَالُواْ يُهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ} [هود ٥٣] قالوا له أنت لم تأتِ لنا ببينة، فكانت بينة سيدنا هود أنه وقف أمام قومه وقال لهم: لن تستطيعوا أن تفعلوا لي شيئًا {فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ} [هود ٥٥].

إذًا دعونا نسير مع الأصل الذي سار عليه سيدنا إبراهيم؛ الأصل أنك تقول دائمًا {إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شيئًا} أن الله عز وجل ينصرنا إن شاء الله {إلا أن يشاء ربي شيئا}... لكن في الدعاء تُلح، ولا تقول:

يا رب انصرني إن شئت؛ عن مثل هذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم[٤]؛ بل تدعو وتلح في الدعاء.
لكن حين تناظر أحدًا فلا تقول له: "أنا على الحق وأنت على الباطل ووالله ستنزل عليك صاعقة من السماء"! لا؛ لا يكون كلامك هكذا حتى لا تكون فتنة لهم وللناس، فالحكمة والعقل الكامل الذي اتصف به سيدنا إبراهيم أنه قال: {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} في موقف المناظرة على الإيذاء، وهم يخوفونه قال لهم أنا لا أخاف:{إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}.

سيدنا خُبيب رضي الله عنه صلبوه ومات سيدنا خُبيب مع أنه دعا عليهم، الكفار انبطحوا على الأرض ظنوا أنه ستنزل عليهم صاعقة ويموتون؛ لكن مات سيدنا خُبيب... قتلوه! المشركون حينما رفعوا خبيب بن عدي على الخشبة ليصلبوه نادوه وناشدوه: أتحب أن محمدًا مكانك وأنت في بيتك؟ فقال: "لا والله ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه"، فضحكوا منه. وفي رواية قال لهم: "والله ما أحب أني بين أهلي ومحمد صلى الله عليه وسلم في المكان الذي هو فيه تشوكه شوكة". ثم رفعوه على خشبة ليصلبوه فلما أوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا. قال معاوية رضي الله عنه: حضرت مقتل خبيب مع أبي – أبي سفيان وكانا لم يسلما وقتها– فلقد رأيت أبي يلقيني إلى الأرض فَرَقًا–خوفا–من دعوة خبيب! من دعوته ظنوا أنهم سيحل بهم العذاب! الشاهد؛ أن سيدنا خُبيب مات. من يقرأ القصة في أولها يعتقد أنه لا يمكن أن يموت، لكن مات سيدنا خبيب وهذا قدر الله عز وجل أن يموت. ولو هناك اعتقاد عند أحد أنه دائمًا الحق ينتصر بصورة ما في مخيلته، وأن سيدنا خبيب سينجو، يقول لماذا لم ينجه الله أليس على الحق؟! وهذا مقياس باطل... عند أهل الباطل أنه ما دمت انتصرت عليك فأنت على الباطل وأنا على الحق! لكن الله عز وجل بيده الملك يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى.

هرقل كان يفهم هذا لما سأل أبي سفيان رضي الله عنه، كان يفهم أن هذا من سنن الله عز وجل حين قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ –أي أبو سفيان–: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.
هرقل لما سمع هذه الكلمة؛ لم يقل إذًا هو ليس بنبي! بل أيقن أنه نبي، هذا يعني أنه لم يجعل النصر الدائم آية من آيات صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، ثم بنى عليها أنه ما دام الحرب سجال لا يكون

[٤] عن أبي هريرة: [لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، ولعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء، لا مكره له]. البخاري(٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٧٤٧٧. [صحيح]

نبي! لا...وكما قلنا في معركة التبيين –في درس مرحلة الفرقان– معركة التبيين ينتصر فيها الدين دائمًا، أما معركة التطبيق الحرب بيننا وبينهم سجال، ونُؤتَى من قِبل ذنوبنا.

الشاهد: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} {وَكَيْفَ أَخَافُ}[الانعام ٨٠] كلمة جميلة جدًا، كلمة عجيبة، تعني أن سيدنا إبراهيم لم يكتفِ أنه قال لهم: لا أخاف وحسب... بل قال لهم: وكيف أخاف ولماذا؟! هذه المعاملة حين يعامل الإنسان ربه عز وجل وعلا ويصل إلى هذه الدرجة هو أيقن أنه في تناسق مع الكون كله، تناسق مع الشمس والقمر والمطر والأرض، كل هؤلاء جنود لربنا.

مثل صاحب قصة "كفى بالله كفيلا":

والقصة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ. فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ. فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[٥].

فالرجل موقن أن البحر بحره –سبحانه وتعالى– والهواء هواؤه والسماء سماؤه وأنا ارتضيت به شهيدًا والرجل الآخر ارتضى به شهيدًا، فرماها في البحر. انظر للإنسان حين يصل لهذه العلاقة الحميمية مع

[٥] أحمد شاكر (١٣٧٧هـ)، مسند أحمد ٢٤١/١٦. إسناده صحيح.

الكون، لكن دائمًا الإنسان الغربي يشعر أنه في صراع مع الطبيعة، لكن المؤمن يشعر أنه في علاقة حميمية مع الكون.

فسيدنا إبراهيم يقول لهم: كيف أخاف؟! فالله عز وجل يملك كل شيء وبيده نواصي الخلق، ولو أي شيء حدث فهو ربي {قل لن يصيبنا الا ما كتب الله..}[التوبة ٥١] تأمل؛ هل قال "علينا"؟ لا؛ بل قال {لنا} {قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا} لكن هذه مصيبة! لكنه يقول {لنا}فهي في مصلحتنا لام الملكية "لنا".أي حتى الإيذاء فيه فائدة لي.

النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث القدسي قال الله عز وجل: (وما زالَ عَبْدي المؤمنُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتّى أُحِبَّهُ...) نريد الاستدلال بآخر الحديث: (وما تردَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعلُهُ تردُّدي في قَبضِ رُوحِ عَبْدي المؤمنِ، يكرَهُ الموتَ وأكرَهُ مَساءَتَهُ، ولا بُدَّ لهُ مِنهُ)[٦] فإحساس المؤمن أن أي مصيبة تحصل له أن ربنا يكرهها لكن لا بد له منها... أي مصيبة تحدث لك -للمؤمن- وما ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ لا بد لك منها، لا بد لك من الموت حتى ترى الله.

الحديث الجميل: (وأنَّكم لن تَرَوْا ربَّكم حتى تموتوا) هذا الحديث يحببك في الموت، لما تسمع (وأنَّكم لن تَرَوْا ربَّكم حتى تموتوا)[٧] تعرف أن السبيل الوحيد لأن نرى ربنا هو أن نموت؟ فتقول إذًا أنا أريد أن أموت.

تأمل قصة صاحب التمرات؛ قالَ رَجُلٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم يَومَ أُحُدٍ أرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ فأيْنَ أنا؟ قالَ: في الجَنَّةِ فألْقى تَمَراتٍ في يَدِهِ، ثُمَّ قاتَلَ حتّى قُتِلَ. إذا كان كل ما بيني وبين الجنة هو أن أموت، فأنا أريد الموت! فألقى هذه التمرات! لذلك الإنسان لما يكون له هذه العلاقة مع الله لا يخاف. مثل كلمة شيخ الإسلام: "ما يفعل أعدائي بي؟!" ما الذي سيحدث؟! أنا أحب ربي سبحانه وتعالى ولو مت سألقى الله؛ وذلك في سبيل الله... لكن لا تتمنوا لقاء العدو؛ اسألوا الله العافية ولا تتمنوا لقاء العدو،

---

[٦] عن انس بن مالك: [عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تبارك وتعالى، قال يقول الله عز وجل من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي، كما يغضب الليث الحرد، وما تقرب الي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه ....وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته،....] شعيب الأرنؤوط(١٤٣٨هـ). تخريج شرح السنة ١٢٤٩. [اسناده ضعيف]

[٧] عم عبادة بن الصامت:[إني محدثكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، وإن المسيح الدجال رجل قصير، أفحج، جعد، أعور، مطمس العين، ليست بناتئة، ولا جحراء، فإن ألبس عليكم؛ فأعلموا أن ربكم ليس أعور، وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا]. الألباني(١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع ٢٤٥٩. [صحيح]

ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا، واذكروا الله عز وجل كثيرا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: ٤٥].

فسيدنا إبراهيم يسألهم سؤالًا استفهاميًا استنكاريًا ويتعجب! {وَكَيفَ أَخَافُ}؟! كيف أخاف وكل خير في حياتي منه، كيف أخاف وربنا يحفظني طيلة عمري، كيف أخاف وهو يحفظني من يوم أن كنت نطفة بل من قبل أن أكون موجودا أصلا؟! وحفظني إلى أن كبرت؟! كيف أخاف وكل ما يحيط بي من أخطار هو يحفظني منها؟! كيف أخاف وهو يطعمني ويسقيني وإذا مرضت فهو يشفين؟! كيف أخاف وأنا كل ما أحتاج شيئًا ألجأ له؟!!

لو ضربنا مثالا ولله المثل الأعلى؛ تخيل لو ذهبت لابن أغنى رجل في العالم وقلت له حدثت مصيبة... فقال لك: ماذا حدث؟ فقلت له: البطاطس ارتفع سعرها! فهو سيستغرب لأنه شيء سهل المنال بالنسبة له، هو متوفر لديه كل هذا وما هو أعلى، فلا يدرك معنى الخوف من قلة الغذاء ولا الخوف على الرزق، ولله المثل الأعلى فالمؤمن مثل هذا الولد الغني لا يفكر هذا التفكير؛ المؤمن يقف في قيام الليل يرفع يده فيجد مشاكله حُلَّت، فهو لا يعرف الخوف؛ فيقول المؤمن: كيف أخاف وربي ملك السماوات والأرض؟!. فلما يأت أحد ليخوفني من ضيق الرزق مثلا، فأنظر للسماوات والأرض وأقول كيف أخاف؟! كيف وربي يطعم البشر وغير البشر من يوم خلق السماوات والأرض، ثم تأت لتقول لي أخاف أنه يضيق الرزق!...إن قلت هذا أكون إما أني لا أعرف الله عز وجل أو أني لا أوقن أن الله هو الرزاق!؛...أما المؤمن الموقن فيقول: كيف لي أن أخاف؟! كيف تقول لي خِف من الذين سيؤذونك؟! حينها تنظر لمن حفظ السماء باتساعها من استراق السمع! قال الله: {وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَآ أَدرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفس لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ (٤)} [الطارق ١-٤] فمن حفظ السماء يحفظ النفس ويحفظ القرآن. وفي آخر السورة {إِنَّهُۥ لَقَول فَصل} [طارق ١٣] سورة الحفظ سورة الطارق. فلما يأتيك أحد ليخيفك، فأنت تنظر للسماء وتقول من حفظ هذه السماء وحفظني منذ كنت نطفة وحفظني وأنا طفل وحفظني كل هذه السنين، ألا يحفظني الآن؛ فكيف أخاف؟! فمن يتدبر في آيات الله وفي آيات تدبر سيدنا إبراهيم، سيصل لنتيجة طبيعية {وَكَيفَ أَخَافُ}! هذا لمن له علاقة مع ربنا جل وعلا.

من يتفكر في كل المخلوقات حوله من ينظر لخروج الحب من البذر، قال الله: {فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا} [عبس ٢٤-٣١]. ربنا عز وجل لم يقل أن الماء نزل فالبذرة خرجت؛ لا لا. بل قال: {أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا}[عبس٢٥-٢٧] ربنا هو من فعل هذا، فلما تنظر لهذه العملية أمامك، أنت موقن أن الله عز وجل هو الذي فعلها. فأنت في نفسك تقول: هل من فعل هذا، ألا يطعمني ويسقيني؟! الذي لا تسقط ورقة في الأرض إلا ويعلمها، ألا يحفظني؟! الذي يطعم البشر وغيرهم من المخلوقات، ألا يطعمني؟! الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ألا يحفظني؟! ولو حدث لي شيء فلأنه بقدره {وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا} لا يحدث شيء -حاشاه سبحانه وتعالى- رغمًا عنه أو لا يعلمه؛ حاشاه سبحانه وتعالى- {ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}[البقرة ٢٥٥].

وهذا جعل سيدنا إبراهيم يقول: {لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ} أنا لا أريد أن أعبد إلها يأفل ويتركني، أنا أريد أن أعبد إلها يكون معي في كل لحظات حياتي. فسيدنا إبراهيم يقول لهم {وَكَيْفَ أَخَافُ}. كلمة {وَكَيْفَ أَخَافُ} حتى تصل لأن تقولها من قلبك تحتاج منك مجاهدة، تحتاج معرفة الله، تحتاج طول تدبر في الكون وطول تدبر في أسماء الله وصفاته. ستجد نفسك تخرجها تلقائيا، هذه كلمة لا تحفظ ولا تُتكلف. مثلما قلنا أن الخشوع في الصلاة حالة إيمانية لا تأت بقوة العضلات ولا تأت حين مثلا تقول في نفسك سأخشع، سأخشع...لا! الخشوع يكون حسب حالتك الإيمانية؛ فلو أنك غاض لبصرك ثم دخلت المسجد وصليت السنة القبلية ومتطهر في بيتك ثم قلت الأذكار وجلست لتدعو ما بين الأذان والإقامة؛ ستخشع في الصلاة. وإذا كنت تعرف معاني القرآن وتحاول طول السنة تجاهد في فهم آيات القرآن، فتجد نفسك خشاعا في صلاة التراويح في رمضان، رد فعل تلقائي.

لذلك مثل ما قلنا في قول الله عز وجل: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [الحجر ٩٧] فماذا أفعل؟! ضيق في الصدر، ماذا أفعل؟ أنا لا أملك صدري، أنا لا أملك قلبي، أنا لا أملك أي شيء في حياتي، فربنا لم يقل لي: إذا ضاق صدرك فوسعه! لأن أنا لا أستطيع... فماذا أفعل إذًا؟ {فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين}[الحجر ٩٨] أنت سَبِّح وأنا أشرح لك صدرك، مثلما قال

تعالى في آخر سورة طه {ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى}[طه ١٣٠] لكي ترضى ولتعيش في حالة من الرضا، حتى لا تعيش في حالة من الشقاء مثل في أول طه: {ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}[طه ٢] حتى لا تعيش في حالة من الضيق مثل التي في آخر الحجر {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون}[الحجر ٩٧] سَبِّح! نَزِّه الله. كلما نزهت الله عن النقص كلما تعتقد في الله الكمال، كلما زدت معرفة لله كلما لا يكون لديك مشاكل! ...كلما تتدبر في خلق الله كلما تنزه الله عن النقص كلما تقترب من الله أكثر كلما يصبح صدرك منشرحًا، فتقول {وكيف أخاف}.

مثل النبي صلى الله عليه وسلم وهو مع سيدنا أبي بكر–الموضوع لا يحتاج تكلفًا– يقول: يا رسول الله إن نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، قال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟)[8] سواءً سيَرَونا أم لن يرونا، سينظروا أم لن ينظروا، هو لم يقل له: لا فهو عندما سينظر سيحدث كذا... لا أنا لا أعرف ما هو الحل! لكن ما أعرفه أننا في معية الله! نحن نهاجر لننصر دين الله، إذًا نحن في معية الله... هذا ما أعرفه، سواء قُبِضَ علينا أو أُخِذنا أو أوذينا، (الله ثالثهما) هذا ما أعرفه. إذًا فتظن بالله كل خير.

لذلك من الأشياء التي كان أحد الإخوة دائما يسألني يقول لي: أليس يقول ربنا في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وإن شرا فشر)[9]؟ فقال لي إذًا أنا أحسن الظن بربنا! قلت له: أرِنِي؛ لا تستطيع! حسن الظن بالله ليس سهلًا! هذا نتيجة مثل الخشوع، إذا كان إيمانك عاليًا ستجد نفسك تحسن الظن بالله بغير إرادتك!، لكن إذا كان إيمانك ضعيف، وبعيد عن الله، ولا يوجد قيام ليل ولا يوجد تدبر؛ ستجدك بغير إرادتك تقول: لماذا يا رب؟ كل موقف يحدث لك تسيء الظن... وتقول: لا يوجد فائدة ولا يوجد أمل وتجدك في حالة هلع. لذلك ربط الله عز وجل الهلع بعدم الصلاة {إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جذوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين}[المعارج ١٩-٢٢] الصلاة تمنع عنك هذا الهلع، إذا كان لا يوجد صلاة ولا يوجد ارتباط بالله ولا يوجد قرب من الله عز وجل ستظل في هلع، سيظل هناك خوف، لن تستطيع أن تقول {وكيف أخاف} لن تستطيع أن تحسن ظنك بالله لن تستطيع، هذه ليست بالقوة والعضلات! هذا معنى إيماني يحضر في القلب عندما تسبح الله عز وجل وتتقرب منه.

[8] عن أبي بكر الصديق:[قلت: يا رسول الله ونحن في الغار لو أن رجلا اطلع لرآنا فقال:" ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟" البزار(٢٩٢هـ)، البحر الزخار ١م٩٦. [اسناده صحيح]. أخرجه البخاري(٣٦٥٣)، ومسلم(٢٣٨١).

[9] عن أبي هريرة: (إن الله جل وعلا يقول: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن بي خيرا فله، وإن ظن شرا فله). ابن حبان(٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان ٦٣٩.رأخرجه في صحيحه.

لذلك الطلب الوحيد الذي طلبه سيدنا موسى أو النتيجة التي طلب من أجلها الطلبات {كي نسبحك كثيرا}[طه ٣٣]، عندما قال الله له {اذهب إلى فرعون إنه طغى}[طه ٢٤] قال له اذهب لطاغية من الممكن أن يقتلك، فهو طاغية، جبار متكبر {اذهب الى فرعون إنه طغى} فماذا طلب؟ {رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل العقدة من لساني يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي}[طه ٢٥-٣٠] لماذا كل هذه الطلبات؟! {كي نسبحك كثيرا}[طه ٣٣] وماذا في التسبيح لله كثيرا؟! يسبح الله كثيرًا -مرة أخرى هذه المعادلة- أي سينزه الله عن كل نقص، أي سيعتقد في الله الكمال، أي سيرتبط بالله وسيشعر أن كل شيء ملك لله فسيتوقف عن الخوف! سيصل لمرحلة {وكيف أخاف}. لذلك التسبيح الكثير يصرف عنك ضيق الصدر. ما علاقة التسبيح بعلاج ضيق الصدر؟ ما علاقة التسبيح بالرضا {لعلك ترضى}[طه ١٣٠] في آخر طه وآخر الحجر؟ ما علاقة التسبيح بهذا؟

أنت طوال الوقت يأتي لك خواطر سيئة عن ربنا، أن ربنا سيتركك، أن ربنا سيخذلك، أن ربنا لن يحفظك، أن ربنا ليس معك، هذه خواطر سيئة؛ والتسبيح يصرف هذا، سبحان الله؛ أي أنزه الله أن يصير في ملكه شيء بغير إذنه، أنزه الله أن يصيبني شيء إلا قد قدره الله، أنزه الله أن فلانًا بيده نفع أو ضر، هذه هي معاني سبحان الله. فأنت طوال الوقت تقول: "سبحان الله وبحمده" أنت صدرك يمر عليه هذه الحقائق، الله يملك كل شيء، الله يملك النواصي، الله وحده سبحانه بيده النفع والضر، الله وحده بيده الرزق، إذًا لماذا أنا خائف؟ فتكون -مع الفارق طبعًا- مثل ابن أغنى رجل في العالم لما أتوا يخوفونه فيقول لهم: كيف أخاف! فلذلك سيدنا إبراهيم يقول {وكيف أخاف}.

إذًا ما نريد أن نخرج به أن هذه العلاقة مجاهدة.. هذه العلاقة طريق.. هذه العلاقة لا تأتي بأن تقول فجأة أنا أخذت قرارا بأني لن أخاف من أي أحد غير الله...هكذا سيفعلها الجميع.. لكن لا! هذا عمل قلبي يأتي بالمجاهدة.. التوكل على الله عز وجل.. حسن الظن بالله.. هذا اليقين عمل قلبي يأتي بالمجاهدة.. فجأة قلبك ينصلح، {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}[الأنفال ٢٤] إذًا عدم الاستجابة تجعل قلبك يتفلت منك! قلبك لا يعد ملكك! {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}.. إذا لم يكن هناك استجابة لأوامر ربنا وكان الأمر هنا بالجهاد -على أحد الأقوال- {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} لو لم تستجب ستخاف.. تخيل! عكس الذي نتوقعه.. قد يقول أحد لن أجاهد لأكون آمنا مطمئنًا... لا! ستظل خائفًا.. ستظل تعيش في هلع.. ستظل تعيش في جزع.

لذلك في قول الله –عز وجل– في سورة النساء {وإن منكم لمن ليبطئن}[النساء ٧٢]...الآيات، الله – سبحانه وتعالى– يقول في آخرها {فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة}[النساء ٧٤] بعض المفسرين قال {فليقاتل} المقصود به المنافق الخائف من القتال وأنه لا يوجد حل لإزالة الخوف وعلاج النفاق من القلب إلا أن يقاتِل.. لا يوجد حل لإزالة النفاق والخوف والهلع إلا بأن يلقي نفسه في القتال، تماما مثل الخائف من السباحة.. الحل أن يلقي بنفسه في الماء.. الحل أن يدفعه أحد، يخوض التجربة. الخائف من القيادة... الخائف من أن يفعل شيئا فالحل أنه يخوض التجربة، فربنا يقول له {فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة}، قيل من معاني {الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة} أي من يحب الدنيا جدا ولا يفكر في الآخرة الحل معه أن يقاتل حتى تعود الآخرة فتَعظم عنده والدنيا تحقر عنده، حله أن يقاتل، هذا أحد المعاني في هذه الآية.

إذًا لا بد من مجاهدة.. من سير في الطريق حتى تصل لمرحلة {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}[الأنعام ٨١]

عجيب جدا سيدنا إبراهيم! حقًّا الناس كلهم يرون الدنيا بمقاييس والمؤمن يرى الدنيا بمقاييس مختلفة تماما...يقول لهم {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ}[الأنعام ٨١] مشهد عجيب! أريدك أن تتخيل مثلا شخصًا يحارب الكفار ثم وقع أسيرًا، وهم يأخذونه ويمشون به مثلا للقتل.. أو أحدًا يقاتل ويُمر به على مثلا لغم أو كمين سيوضع تحت ضغط سواءً سيُقتَل.. سيُعذَّب.. وهو في هذا الحال يقول لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ} أي من المفترض أن تكونوا أنتم الخائفين الآن!... يتعجبون! لكن نحن من سنقتلك!.. نحن من معنا السلاح!.. أنت ليس معك سلاح!.. أنت وحدك ليس معك أحدا!.. أنت لست فريقا أنت وحدك {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ} أيُّ فريق؟ أنت وحدك!... لا؛.. هو ليس وحده.. الكون كله معه {وما يعلم جنود ربك إلا هو}[المدثر ٣١] هو ليس وحده، {حسبنا الله ونعم الوكيل}[آل عمران ١٧٣] قالها إبراهيم في الهواء وقومه يقذفونه في النار... هو ليس وحده.

لذلك يقول لهم {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ} فهم تعجبوا كيف يقول على نفسه فريق؟!... لأنه ليس وحده، {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أنا في أمن!!!

عندما تقرأ قصة الحجاج مع سعيد بن جبير تتعجب من ثبات سعيد بن جبير، مبتسم.. يقول له الحجاج: أنت شقي بن كسير.. -يعكس له اسمه بدل سعيد بن جبير-، يقول له: أمي أعلم باسمي منك.. ما هذا؟! ما هذا الثبات؟! ويضحك ويقول له علام تضحك؟.. -سيُجَن الحجاج-.. يقول له: أنا سأقتلك وتضحك! قال سعيد: أتعجب من حِلم الله عليك ومن جرأتك على الله!!!.. إنه يتدبر! ذاهب للموت ويتدبر... انظر إلى الثبات!، يقول: وجهوني إلى القبلة، لا؛.. حولوه عن القبلة.. يقول سعيد{أينما تولوا فثم وجه الله}[البقرة ١١٥].. لآخر لحظة وسعيد بن جبير ثابت، حتى بالرغم من أنه قُتل إلا أنه هو من كان الآمن.. وبالفعل عاش الحجاج بعده خائفا لما دعا سعيد بن الجبير "اللهم لا تسلطه على أحد بعدي".. الحجاج هو من عاش خائفًا... ومات سعيد مطمئنا.

فالمفترض أنك عندما تتعرض لضغط.. تنظر فإذا كنت على الحق فمن المفترض ألا تكون خائفًا.. خصمك هو من يكون خائفًا {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}دائما منهج سيدنا إبراهيم يعلمهم.. مثلما قلنا سيدنا إبراهيم دائما يسأل قومه.. يجعلهم يسألون أنفسهم.. يجعلهم يفكرون {أتعبدون ما تنحتون}[الصافات ٩٥].. {كيف أخاف}.. {أتحاجوني في الله وقد هدان} دائما سيدنا إبراهيم يعلمهم.. حتى عندما جاؤوا ليؤذوه خائف أن يكون هذا الأذى يحدث بقدر من الله فيفتنوا فيقول {إلا أن يشاء ربي شيئا} دائما سيدنا إبراهيم حريص على هداية قومه. فهنا يقول لهم {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} يقول لهم أنتم موقفكم هذا من أين أتيتم به؟ مثلما في أول سورة الأحقاف {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض}[الأحقاف ٤] أروني هل خلقوا شيئا في الأرض؟.. {أم لهم شرك في السماوات}.. {آتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين}[الأحقاف ٤] موقفكم الشركي هذا تبنونه على أي أساس؟ أنا معي كتاب.. المؤمن عندما يناظر يقول: أنا معي كتاب، أنت تدعي أنه باطل وأن ديني باطل، لكن أنا معي كتاب وفيه إعجاز اتحدى به واتحداك أن تأتي بمثله ولو بسورة من مثله، هذا موقفي، ماذا عنك أنت -أيها الملحد والمشرك- من أين أتيت بموقفك هذا؟

فهنا يقول لهم ألا تخافون؟! وكيف لا تخافون؟! ألا تفكروا؟!، يقول: {وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}[الأنعام ٨١] يقول لهم: كيف لا تخافون؟!، انظر كيف يهزهم ويشككهم في قضيتهم ليُفيقوا، يقول كيف لا تخافون؟! هل معكم دليل؟ ماذا فعلت لكم آلهتكم؟ أنا معي وحي، أنتم ماذا معكم؟! المؤمن دائمًا يهاجِم لأن المؤمن معه وحي معه قرآن، فعندما يرد على المناهج الباطلة

يهاجمها، يقول: ماذا معكم! ليس معكم سوى أفكار لأناس قد ماتوا، هذه الأهواء التي تعيشون فيها ليست إلا أفكار لموتى يثبت الواقع كل يوم أنها خاطئة، أما أنا فمعي وحي محفوظ من التبديل والتغيير وكل يوم يثبت أنه هو الحق {سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ} [فصلت ٥٣] المؤمن لا بد أن يكون على يقين مما معه من الحق، لا بد أن تكون موقنًا من منهجك.

ثم يقول لهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} تخيل قبيلة كاملة تقف أمام سيدنا إبراهيم وهو يقف وحده ويقول لهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام ٨١].

((هذا الموقف كفيل أن يهزمهم، فثبات أهل الحق يهز أهل الباطل))

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام ٨٢] هذه الكلمة قيل أنها من كلام سيدنا إبراهيم أو من كلام الله، وهي في الغالب -إن شاء الله- من كلام سيدنا إبراهيم {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}: أي بشرك {أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} وإن كان معنى الآية أن {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} أي بشرك -كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم- إلا أن العلماء قالوا: "كمال مطلق الأمن مع مطلق الإيمان؛ أي كلما قل الإيمان كلما قل الأمن إلى أن ينتفي الإيمان مطلقًا فيُنفى الأمن مطلقًا. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- الكفاية على قدر الاتباع والناقصة بالناقصة، فهنا الأمن على قدر الإيمان والناقصة بالناقصة".

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} الأمن على قدر الإيمان فكلما خلطّت في إيمانك كلما قل الأمن في صدرك، وكلما كان إيمانك ثابت وكامل وصافٍ كلما أحسست بقمة الأمن والطمأنينة.

إذًا انتبه: إذا حدثت لك هزة من داخلك في أمنك فاعلم أن هناك مشكلة في الإيمان، إذا شعرت بعدم الأمن والهلع والفزع والخوف على الرزق والخوف على الحياة، إذا وجدت كل هذا داخلك فاعلم أن هناك مشكلة سببت نقصًا في إيمانك، وحلها أن ترفع إيمانك، فلا تحيّر نفسك بالبحث عن حلول أخرى.

أذكر أخًا كانت عنده مشكلة في الرزق فكلمت أحد الإخوة -جزاه الله خيرًا- فصلى بنا ركعتين صلى بالإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء، وبعد الصلاة سألت الأخ صاحب المشكلة كيف تشعر؟ فقال

لي: الآيات التي سمعتها في رزق الله لمريم وحفظ الله لأهل الكهف وآيات حفظ الله في سورتي طه والأنبياء جعلتني أكتشف أنني كنت غبيًا!!! رأى المشكلة بمنظور قرآني.

فأحيانًا يكون الحل في ألا تتناقش كثيرًا –طبعًا تأخذ بالأسباب– لكن أنا أكلمك الآن عن قلبك وليس عن المشكلة، أكلمك عن الذي بداخلك لكي يستقر وتشعر بالطمأنينة{وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}[الحجر ٩٧] قلبك هذا أنت لا تملكه {وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ}[الأنفال ٢٤] فما حله إذًا؟ حله أن ترفع إيمانك، حله أن تعود لأصل المشكلة وتعالجها.

إذًا: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}: أي بشرك، {أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

انتبه؛ هذه المرة الثالثة التي يأتي فيها لفظ "اللبس" في السورة {وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ}، {أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا}، {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ}! إياك أن تفسد إيمانك بعد أن أعطاك الله إياه، إياك أن تخلّطه وتعرّضه للشبهات والشهوات، إياك أن يعطيك الله فطرة نقية وقلبًا صافٍ يحب الله فتدنسه، إياك أن تفسد حياتك بيدك، إياك أن تلجأ لغير الله، بل الجأ إلى الله عز وجل وسر في الطريق الصحيح.{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} (٨٢)

حجة إبراهيم على قومه:

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (٨٣)

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا}: من قال أن سيدنا إبراهيم كان مناظرا، قال الحجة من بداية آيات القصة {وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ} هي الحجة. ومن قال أن سيدنا إبراهيم كان ناظرا، فالحجة هي الآيات بداية من {قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ}

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَىٰ قَوْمِهِ} الداعية الصادق الذي يريد هداية قومه يؤتيه الله عز وجل الحجة على قومه، وكما قلنا من قبل معركة التبيين لا يُهزم فيها المؤمن الصادق أبدًا، المؤمن الفاهم لدينه العالم بدينه لا يُهزم في هذه المعركة أبدًا، لكن معركة التطبيق هي التي سجال بيننا وبينهم، بذنوبنا، لكن معركة التبيين محفوظة لأن القرآن محفوظ إلى أن تقوم الساعة {إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}[الحجر ٩] الأمر منتهٍ.

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا} نسبها الله عز وجل إلى نفسه {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَى قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ} اصطفى الله عز وجل إبراهيم من بين قومه كلهم -نسأل الله عز وجل أن يصطفينا وأن يستعملنا لنصرة دينه-. {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ} الرفعة بيد الله عز وجل، أحيانًا عندما ترى شيخًا فتح الله عليه تظن أن ظروفه هي التي سمحت له بذلك، وتظن لو توفرت لك مثل ظروفه لكنت مثله، لكن لا؛ بل {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ} إياك أن تتعلق بالأسباب المحيطة، فالله عز وجل يرفع من يشاء ويخفض من يشاء سبحانه وتعالى، وعندما تطلب العلم عند شيخ دائمًا تذكر (كلكم ضال إلا من هديته)[١٠] حتى شيخك محتاج إلى الافتقار إلى الله، إياك أن تتعلق بأحد غير الله، نعم تعظم العلماء، لكن قلبك متعلق بالله وحده وليس بأي شخص ولا بأي سبب، والذي يتعلق قلبه بالأشخاص يُفتن لو تغير هذا الشخص أو مات أو فُتن – نعوذ بالله من ذلك كله- فأنت من البداية تعلق قلبك بالله سبحانه وتعالى وحده.

{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ} سبحانه وتعالى {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} الله له حكمة فيمن يختاره ويعلم من يستحق ذلك الاختيار والاصطفاء، {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} الله عز وجل حكيم في اصطفائه عليم بمن يستحقه -نسأل الله عز وجل أن يستعملنا-.

ولما ترك إبراهيم قومه من أجل الله أبدله الله عز وجل {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} عندما ترك قومه وحاج قومه وهجر قومه رزقه الله عز وجل، وهذه الآية دائمًا تأتي في هذا السياق -كما في سورة مريم والأنبياء وغيرها- أن الله عز وجل أخلفه لما ترك قومه.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ}[الأنعام ٨٤] من بداية إسحاق ويعقوب سبعة عشر نبيًا ذُكروا في هذا الموضع في سورة الأنعام متتاليين، رحلة الهداية، هداية الله لسيدنا إبراهيم، واصطفاء الله لإبراهيم وغيره من الأنبياء أمر مستمر على مدار الزمان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، بل النبي صلى الله عليه وسلم واحد من الموكب الطويل من الرسل والأنبياء، رحلة الهداية في الأرض، رحلة الأنبياء {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}[البقرة ٢١٣] قيل: أي كانوا على الكفر فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، فهناك رحلة طويلة فعندما تسير في طريق الدعوة حتى لو كنت وحدك في بلد، اعلم أن الطريق طويل وقد سار فيه

---

[١٠] مسلم(٢٦١هـ)، صحيح مسلم ٢٥٧٧.[صحيح]

غيرك، مئات بل آلاف الأنبياء والرسل مشوا في هذا الطريق، وآلاف الناس مشوا في هذا الطريق وألوف مؤلفة من الدعاة مشوا في هذا الطريق، اعلم أنك تسير على طريق ممتد طويل من لدن نوح {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ}.

هذه الآيات تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم أن يحاج قومه كما حاج إبراهيم قومه، وأمر أن يأخذ هذه الآيات –كما ذكرنا سورة الأنعام ذُكر فيها أكثر من أربعين مرة كلمة (قل)– فيأخذها حجة ويحاج بها قومه كما فعل سيدنا إبراهيم.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}[الأنعام ٨٤-٨٥]

قرأت في بعض التفاسير أن بعض العلماء قالوا حاولنا أن نتدبر لماذا هذا الترتيب فلم يفتح علينا... وهذا من كمال الإنصاف أنه لم يتكلم، غيرهم حاول، وحاولت في كثير من التفاسير أن أبحث ما السبب وراء هذا الترتيب للأنبياء؟ لماذا جاء مع "إسحاق ويعقوب" داوود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهارون، لماذا تلك الثنائيات؟ ولماذا في الآية الأولى ختمت {وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} ثم {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا} ختمت {وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} فهذا ليس الترتيب التاريخي للأنبياء.

بعض العلماء حاول البحث عن حكمة وسبب هذا الترتيب منهم ابن عاشور والبقاعي ورشيد رضا– هذا ما وجدته– حتى الألوسي قال بعدما بحث، قال: "لم يتبين لي السر"، مع أن الألوسي من المتأخرين من حوالي ١٢٠٠ هجري، من المفترض أنه أطلع على كثير من التفاسير وعلى الرغم من ذلك قال: لم يتبين لي السر. وهناك كثير من المفسرين أعترف بالعجز. وستبقى هناك آيات يفتحها الله عز وجل لمن يشاء من عباده.

فأغلب من حاول ربطها؛ ربطها بالعلاقة بين الملك والدنيا، وقال إن سيدنا داوود وسليمان كانوا ملكين، وأيوب ويوسف أيضا رزقوا ملك ومال كثير، وأن سيدنا يوسف رزق مال كثير حتى أن بعض الروايات قالت أنه كان ملك. وموسى وهارون مارسوا القتال. ومنهم من قال: إن هؤلاء الأنبياء الست ابتُلوا بالسراء والضراء، فهؤلاء كملت لهم مرتبة الإحسان، فجاءت معهم {وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}

وهذه بعض المحاولات لاستكشاف سبب هذا الترتيب. ثم قال {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ}، قال هؤلاء كلهم كانوا من الزاهدين في الدنيا تماما وابتلوا كثيرا من قومهم وأوذوا، وكلهم تعرضوا لمحاولات قتل؛ فختمت {كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ} أهل الصلاح الذين زهدوا في الدنيا واختاروا الآخرة. {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا} ليس هناك جامع معين لهم، لا هم ابتلوا بالسراء والضراء ولا هم كانوا زاهدين في الدنيا، فربنا قال حتى لا يظن أحد بهم نقص، فربنا قال {وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}[الأنعام ٨٦]. وهذه كانت محاولة لرشيد رضا، وسبقه الإمام البقاعي فيها، وابن عاشور حاول مثلما قلت. والذى يريد أن يراجع –هم طبعا كتبوا تفصيل أكثر من ذلك– الذي يريد أن يراجع تلك تفسيرات الثلاث فقد وجدت فيهم محاولة لترتيب الأنبياء بهذه الطريقة.

الشاهد: هذه رحلة الهداية لهؤلاء الأنبياء... فقط الذي فيه خلاف في قول الله عز وجل ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾[الأنعام: ٨٤]هل هذه الهاء في { ومن ذريته}عائدة على سيدنا إبراهيم أم عائدة على سيدنا نوح؟ أغلب المفسرين قالوا أنها عائدة على سيدنا إبراهيم، الذي جعل بعض المفسرين يقولوا أنها عائدة على سيدنا نوح –مثل الإمام الطبري وغيره– قال إن لوط ليس من ذرية إبراهيم، بمعني أن كل الأنبياء المذكورين السبعة عشر نبي، إذا حذفنا "نوح" سيتبقى ستة عشر، الستة عشر نبي من ذرية إبراهيم ما عدا لوط...الآيات كلها في سيدنا إبراهيم، وهذه الآيات كلها في تكريم سيدنا إبراهيم، وكيف أن سيدنا إبراهيم ربنا أخرج من نسله كل هؤلاء المهتدين بعد أن كان فردا، وهذا أيضًا من معاني الآيات أن سيدنا إبراهيم كان واقفًا وحده في أول الآيات وبداية القصة وهنا الآيات تذكر أن هناك ستة عشر نبيا من نسل سيدنا إبراهيم ينشروا الهداية في الأرض.

فليس معنى أنه لم يستجاب لك في مرحلة أن تعتقد أن هذا محصلة جهادك، لا، فمن الممكن أن يجعل الله عز وجل من نسلك ومن ذريتك أو ممن يؤمن بك واحد، تموت أنت ولا يبقى إلا واحد فينشر الخير الذي زرعته وجاهدت من أجله. ففي قصة أصحاب الأخدود؛ الناس قالوا: آمنا برب الغلام بعد ما مات الغلام. لما قال الملك: بسم الله رب الغلام ورمى السهم فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام. الغلام مات قبل أن يسمعها، فتخيل الغلام مات ولم يسمع أحد قالها، لم ير نتاج جهاده... فلما مات ربنا سبحانه وتعالى جعل كل هؤلاء يؤمنوا. فليس معنى أنك لم تر بعينيك، أن هذا لن يحدث.

فبعض العلماء رد على من قال أن سيدنا لوط ليس من ذرية سيدنا ابراهيم... فقال: إن سيدنا لوط هو ابن أخ سيدنا إبراهيم وهذا يعتبر من نسله، أيا كان –هذا لكي نكون ذكرنا المباحث التي في الآية.

{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[الأنعام ٨٧] الآيات القادمة نتكلم فيها المرة القادمة إن شاء الله، وهي مليئة بكلمة "الهدى والاجتباء والاصطفاء" فكلمة الهدى ذكرت عده مرات في ثلاث أو أربع آيات، ما دلالة هذا؟ نتكلم فيها المرة المقبلة بإذن الله عز وجل. نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.